

إضاءة على ديوانين للشاعر تامر الملاط

المحامي شارل
ي. أبي صعب

رجل قانون وأديب، سليل عائلة أدباء وقانونيين. والده شاعر الأرز شبلي الملاط، عمه تامر الملاط صاحب هذا الديوان. تألق في مناصب رفيعة في النول، فكان وزيراً ونقيباً للمحامين ورئيساً لأول مجلس دستوري في لبنان. من مؤلفاته القانونية والأدبية شبلي الملاط، شاعر الأرز - مدرسة التلاقي الوطني بيروت 1999 ومواقف Positions بالعربية والفرنسية، بيروت 2004. هذه هي باقتضاب خصائل وصفات رجل القانون الكبير وجدي الملاط، الذي أشرف على إصدار ديوانين لتامر الملاط، الديوان الأول يحتوي 1 على مجموعة قصائد وأشاعر خطها بيده، إلا أن الكثير من شعره ومن مؤلفاته ضاع بسبب تنقلاته العديدة، ولا سيما رئاسته لمحاكم جزين والشوف وزحل وكسروان وجبيل أيام المتصرفية. غير أن ما بقي من الآثار الشعرية لتامر جمعها شقيقه شبلي شاعر الأرز ضمن الطبعة الأولى من ديوان الملاط عام 1925.

بعد مراجعة شاملة للديوان الأول، يستخلص القارئ أن تامر كان على خلاف شقيقه شبلي، إذ لم يخلد إلى طمأنينة الإيمان، ولم يستطع التسليم بالكثير من التعاليم الدينية السائدة آنذاك في المجتمع اللبناني. بل بقي طوال حياته مستقراً متسائلاً، ومتحيراً غير متحيز، مستقلاً عما كانت عليه نفسه في بدء حياته، وغير واصل بينه وبين الطقوس وبين العبادات، من دون أن يقطع الحبل الممدود بينه وبين الروحانية، إضافة إلى أن القارئ يكتشف في هذا الديوان روحاً تضاهي في خزنة الشعر العربي أصالة أبي الطيب المتنبي وحكمة أبي العلاء المعري.



وقد تغنى بشعر تامر الملاط الشيخ بشارة الخوري أول رئيس للجمهورية بعد الاستقلال عندما زار بعيداً في أول عهد ولايته عام 1945، وذكر تامراً في خطاب ألقاه يومئذ جاء فيه: يكفي بعيداً فخرها أنها انجبت شاعراً من أعظم شعراء هذا العصر كانت تربطنا بعضنا ببعض روابط الصداقة، وهي في نظري قد تبلغ حدّاً تقصر عنه روابط الاخوة، ألا وهو تامر الملاط، ذلك النابغة صاحب القصيد العصماء، وليس هو القائل في مطلع قصيدة مشهورة: من عهد ايزيس وايزيريس/قبل المسيح وقبل شرعة موسى. استهل القانوني الصليبي وجدي الملاط مقدمة ديوان تامر الملاط بهذه الأفكار، إذ ساهم العديد معه في إعداد هذا الديوان الضخم نخص منهم بالذكر المحامي هيام الملاط المؤرخ والكاتب والناشط في الحفاظ على تراث العائلة وصاحب العديد من المؤلفات القانونية والتاريخية... والمتعطف إلى كشف الخبايا عن عائلته العريقة وغيرها من العائلات اللبنانية ذات صلة وثيقة بعائلة الملاط. عهد واصا باشا

يتضمن الديوان موضوعات متعددة كتب فيها تامر ما عاشه، وما افاضت به قريحته من شعر ونظم وقصائد تنوعت بين الحكمة والوصف والمدح كتهنئته للمطران يوسف الدبس يوم عودته من رومية عام 1887 م، وفي باب الإخاء عند تهنئته أسعد بك كرم أحد أعيان اهدن، ونسب جنبا لاط لمناسبة حصوله على وسام الرتبة الأولى، إضافة إلى ابواب عدة كتب فيها تامر الرثاء والغزل، والمناسبات وهي القصيدة الشهيرة التي وضعها ليوسف خطر غانم عند إصداره مؤلفه النفيس برنامج أخوية القديس مارون، والقصيدة الفريدة التي ما زال صداها يتردد في أرجاء بلدة الحازمية ولبنان، تناولت عهد واصا باشا الذي اُتسم بالرشوة والفساد ورواج تجارة الوظائف. فنظم تامر بيتين من الشعر لخصاً مفاصد عهد هذا المتصرف الوقع، وشاعاً على ألسنة الناس، وأصبحا مضرب المثل: قالوا:/ قضي واصا، ووراه الثرى/فأجبتهم وانا الخبير بذاته/رنا الفلوس على بلاط ضريحه/وانا الكفيل لكم برد حياته.

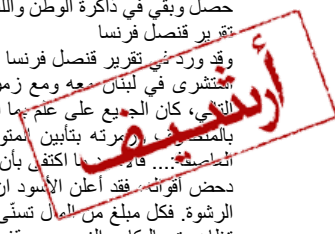
ويخلص الديوان ان نشر مختارات قيلت أدباً وشعراً عن شعر وأدب تامر الملاط أحصاها للدكتور هيام ملاط ويوسف خطر غانم وعاطف جميل عواد، ومقدمة وديع عقل لديوان الشقيقتين 1925 وفي الختام كلمة أخيرة لشبلي شاعر الأرز عن تامر. أما ما انكب على سرده الدكتور هيام الملاط في هذا السياق، فقد تناول بشكل مفصل الحادثة التي حصلت في الحازمية وهزت لبنان والعالم العربي بأسره للجرأة النادرة التي اتصف بها تامر الملاط وذلك عند وفاة المتصرف واصا باشا وكان تامر بين الحاضرين آنذاك هو المعروف خاصة ببينين من الشعر لا يزالان حتى اليوم يرمزان إلى محاربة الفساد والرشوة ألقاهما يوم ماتم واصا باشا في الحازمية. تكلم عن هذه الحادثة شقيقه شبلي في الجزء الأول من ديوانه الصادر عام 1925 قائلاً: هناك على تلك الرابية حيث يقوم قبر واصا اليوم وقع حادث في تاريخ الجبل لا يزال يذكره أهل بيروت ولبنان. حادث شهدته الجماهير الغفيرة التي احتشدت في ذلك اليوم وفي مقدمتها رجال الحكومتين البيروتية واللبنانية.... وقد توفرت لدى الدكتور هيام بعض المراجع عن هذه الحادثة من شأنها إلقاء الضوء على ما حصل وبقي في ذاكرة الوطن واللبنانيين وقفةً يذكرونها حتى اليوم عنواناً للشجاعة ومحاربة الفساد.

تقرير قنصل فرنسا

وقد ورد في تقرير قنصل فرنسا في بيروت تابلنديه Taillandier ، المؤرخ في 5/7/1892 أي بعد أسبوع على وفاة واصا، أن الفساد منتشر في لبنان مع زمرة بالذات. لذلك عندما اجتمع المواطنون وممثلو الدول في محلة الحازمية للوداع الأخير في اليوم التالي، كان الجميع على علم بما اتسم به عهد هذا المتصرف من انهيار خلقي. وفي هذا الجو قام ابراهيم الأسود الذي كان شديد العلاقة بالمتصرف بمرثته بتأبين المتوفى بكلام رواه الأديب والصحافي كرم ملحم كرم في العدد 52 تاريخ 13 آب 1932 من مجلته الخاصية... قال: ما اكتفى بأن يرثي واصا باشا بكلام يدل على حقيقة الرجل بل غالى وبالغ، وغوّه ومبالغته حملاً تامر الملاط على حدص أقرته. فقد أعلن الأسود ان واصا باشا رجل الكمال، مع أن صهر واصا باشا واسمه كوريليان سلك في عهد قريبه كل سبيل إلى الرشوة. فكل مبلغ من المال تسنى له أن يفيض عليه قبض عليه... ولما مات لم يكن الباكون عليه بالعدد الكبير. إلا إن الفنة الموالية له تظاهرت بالكآبة والنحيب. ووقف ابراهيم بك الأسود على الضريح - وكان من الفنة الموالية - ورثى الباشا الفقيدي باسم لبنان قائلاً ان لبنان بأجمعه يبكي متصرفه الراحل ويتألم لهذه الخسارة الجسيمة النازلة به!

ويتابع الدكتور هيام ملاط في مختاراته: وما وقف الأسود عند هذه الكلمات يرثي بها واصا باشا بل قال: إن النكبة فيه نكبة العدل والنزاهة والشرف والوجدان!. وكان تامر بك بين السامعين. فلم يطق هذا القول وقد لمس به الغلو، فنثار ثأره ووقف على الضريح يقول: إن الخطيب الذي رثى الفقيد على مسمعكم الآن زاعماً أنه يتكلم باسم لبنان لا يتكلم باسم لبنان، فاللبنانيون لا يبكون في الفقيد ما بكاه الخطيب بل يترحمون عليه طالبين له من ربه العفو والحلم والغفران. فطرب الحزب المعاكس لواصا باشا حين سمع تامر الملاط يصدم الأسود، وسأل الذين لا يعرفونه: من المتكلم؟... من الخطيب؟ وفيما الضجة قائمة، وفيما الناس ينتظرون ما سوف يكون، إذ بتامر الملاط يجلس في مركبة كانت تنتظره عند مدفن فرنكو باشا، وتتجه به نحو بيروت.

ولم يكن يخشى وقد هبط بيروت إلا ان تشكروا امرأة واصا باشا إلى حكومة الباب العالي قائلة عنه انه أهان وزيراً عثمانياً في لحد. إلا ان امرأة واصا باشا لم تظن لهذه الشكوى، وما انقضى يومان على الحادث حتى كانت تنتقل أندية السياسة والأدب في بيروت البيتين



المشهورين قالوا قضى واصا وواره الثرى ...، ولقد أصبح البيت الثاني: رنوا الفلوس على بلاط ضريحه/وأنا الكفيل لكم برد حياتي، مثلاً من الأمثال السائرة يردده الجميع ويتناقله الجميع ... ولا بد من القول إن جرأة تامر الملاط التي تمثلت بالوقوف على قبر واصا باشاء، وفي إنكار المزايا التي ينسبها إليه أصدقاء الفقيد، جرأة متناهية ربما لم يسبق لأديب ان أقدم عليها والعهد عهد عبد الحميد.... الأشعار المخطوطة

أما الديوان الثاني² والذي اهتم أيضاً بطبعه وجدي الملاط فقد تناول الأشعار التي خطها تامر بيده، وكتبها بريشة ذلك الزمان، ريشة المنادة بالحريّة ومحاربة الظلم والاستبداد، والتخلص من عدو عاث بالبلاد فساداً ورشوة، وبث روح التفردقة بين اللبنانيين. والجدير ذكره في هذا السياق ان المرجع القانوني الكبير وجدي الملاط طبع هذا الديوان ديوان تامر الملاط كما هو مخطوط بخط يد ذلك الرجل، الوحيد الذي وقف بوجه متصرف متعجرف، وجابه بعنفوانه وجرأته حيث لم يجرؤ أحد على مجابهته والتصدي له، ووقف وقفة عزّ وافتخار، وقفة لم يجرؤ لبناني على حنوها لتبقى عبرة لكل متطرف يخفي في قرارة نفسه ضعينة للبنان وشعبه. اما ما أورده وجدي الملاط في تعريفه عن مضمون الديوان الثاني: في اوراقى دفتر يحمل اشعاراً لعمي تامر الملاط مكتوبة بخط انيق معظمها كان مجهولاً لم يجد طريقه الى ديوان الاخوين الذي حرره والذي شاعر الأرز عام 1925، وهو نفسه ديوان مفقود منذ اكثر من نصف قرن عدا اقتناؤه في المكتبات النفيسة. واذ يكتمل نشر ديوان تامر مزاناً بضائع شعره العبقري، اضع هذا الدفتر في جلته الاصلية بين يدي الفارئ العربي ليضاف الى تراث القاضي اللامع في كتاب الاحكام المنشور عام 1999 فتكتمل صورة الشاعر الجاهلي النفس في ثنايا جمال الخط المنساب بفضّ القوافي المتلألئة.

- 1 هو الكتاب الاول لديوان تامر الملاط 1856 - 1914 اشراف وجدي الملاط، تحقيق عاطف عواد يقع في 277 صفحة - دار البديع للنشر .
- 2 هو الديوان الثاني لتامر من الحجم الوسط - يقع في 70 صفحة - جمعه وطبعه وجدي الملاط كما هو مخطوط بيد تامر الملاط - دار البديع للنشر - بيروت - 2016.

الانذار

أرسل هذا المقال لصديق

إطبع هذا المقال

قرأ هذا المقال 264 مرة

أنتشيف